هنيدي عاصي*

«الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني/ أمريكا اللاتينية - جنوب أفريقية – فلسطين»

لمؤلفه الأب مايكل برَيرْ

«الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني – أمريكا اللاتينية، جنوب أفريقية، فلسطين»، دمشق، دار قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣م، الطبعة الأولى، ٤٢٠ ص، من القطع المتوسط ، ترجمة أحمد الجمل، زياد منى.

الأب مايكل برير هو رئيس كلية اللاهوت والدراسات الكتابية في كلية جامعة سانت ماري بجامعة سَرِي، يحمل الجنسية البريطانية، ويتمركز حقله العلمي وتخصصه في علم اللاهوت. ويصنف هذا الكتاب ضمن علم اللاهوت أيضاً، وهو يستهدف المهتمين بشكل مباشر بالخطاب الكتابي واللاهوتي، بالإضافة إلى الباحثين في مجالات الكتابات والتأويلات الكتابية، وإعلام القطاع الأوسع من العامة بقضايا ذات تعقيدات وتأثيرات على الانسان وعلى الولاء للرب.

اشار الأب مايكل، في كتابه، إلى الظروف التي دفعته إلى كتابة هذا الكتاب، كالتأثيرات الكبيرة للاستغلال الاستعماري في عالمنا، وذكر أنه كان يعمل أثناء مراجعته الأخيرة لهذا الكتاب استاذاً في جامعة بيت لحم واستاذاً مقيما في المعهد السكسوني للاهوت بالطنطورة في القدس، حيث كان يتنقل بين بيت لحم والقدس ويقطع الحواجز الاسرائيلية التي تفصل بين المدينتين. هذه إذًا الظروف التي عاشها مع الفلسطينين إبّان أحداث النفق (الانلال والقمع والاهانة)، التي تلحقها المشاريع الاستعمارية بالسكان الأصليين بدون استثناء. هذا بالإضافة إلى صوت الرصاص والدبابات الاسرائيلية التي أعطت قوة معينة لبحثه وكتابه. كما استشهد أحد طلابه في جامعة بيت لحم أثناء إعداده هذه الدراسة بتاريخ ٢٥/ ايلول /١٩٩٦. دفعته هذه الظروف مجتمعة إلى تقديم محاضرة في مدينة القدس تحت عنوان «هل يوافق إله الكتاب المقدس على التطهير العرقي؟» السؤال الذي سعى جاهداً للإجابة عنه في هذا الكتاب .

الكتاب هو دراسة وتحليل للكتاب المقدس بشكل عام، من خلال

* طالب دراسات عليا في جامعة بير زيت/تخصّص دراسات إسرائيليّة

التركيز على مناقشة القضايا التي تسهم في التحقق من أن بعض القصص والنصوص الكتابية قدمت بعض الدعم المعتقدي والأخلاقي لعدد من الحالات الاستعمارية، التي اختار منها [الكاتب] ثلاثة نماذج من مناطق وفترات مختلفة هي: أمريكا اللاتينية في القرون الوسطى؛ وجنوب افريقيا، وفلسطين في القرن التاسع عشر والعشرين). تعكس هذه النماذج الاستعمارية الثلاثة وجهات نظر كاثوليكية وبروتستانتية ويهودية، وقد تم استقصاء مدى تأثير القصة الكتابية وملاءمتها في التسويغ العقائدي للمشروع الاستعماري في كل حالة من الحالات الثلاث. بالإضافة إلى أن الكاتب قدم نقداً وتحليلاً لنصوص الكتاب المقدس التي تم توظيفها في النماذج الاستعمارية، ووقف عند نقاط الشك كمحاولة للوصل إلى الحقيقة ونفي الادعاءات والأكاذيب وعدم الاكتفاء بالجانب الديني لهذه النصوص دون الاهتمام بالسرد التاريخي والأدبي أيضاً، وهذا ما وضحه في الفصل الأخير من كتابه.

ورغم ضخامة المادة وصعوبة الموضوع وفلسفته، إلا أن الأب برير نجح في معالجة موضوع الكتاب وتقديمه بأسلوب ممتع ومنظم وبلغة قوية وسلسة واضحة، ما ساهم في شد وجذب القارئ لمواصلة القراءة وفهم الموضوع دون ملل. يبدأ الكتاب بمقدمة الطبعة العربية التي كتبها مؤلف الكتاب متوجهًا إلى القارئ العربيّ، يليها مدخل عام للمادة يمهّد عملية الانتقال إلى الفصل الأول: المشكلة الخُلقية للتقاليد الكتابية عن الأرض (جانب نظري وسرد تاريخي)، والفصل الثاني: الاستيلاء الاستعماري على تقاليد الأرض (تحليل النماذج)، والفصل الثالث: الاستعمار والدليل الكتابي(نقد)، وأخيراً الخاتمة والهوامش.

تناول الفصل الأول «والذي هو عبارة عن مقدمة وسرد تاريخي»، التقاليد الكتابية عن الأرض، والنصوص التي تتناول قضية الأرض في الأسفار الخمسة (التكوين، الخروج، اللاويين، العدد، التثنية)، والأرض في سفر يهوشوع وأسفار أخرى، كسفر القضاة والانتقال من مرحلة يهوشوع إلى مرحلة شاؤول، وبموت يهوشوع تأتي حقبة موسى (التوراة) وبحلول شاؤول تتم تهيئتنا إلى قدوم عهد داوود والملكية، والتوراة التي قسمت إلى قسمين: تناخ أنبياء السابقين واللاحقين. ومشناه أو كتوفيم كتب معايشة التوراة وأسفار الكنيسة المسيحية الـ ٣٩ التي تعدها نصوصا مقدسة، وكيف تم استغلال هذه النصوص في التأويل وتسويغ وشرعنة الاستعمار وغزوه على الشعوب الأخرى، واحتلال الأرض والاستيلاء عليها والقضاء على السكان الأصليين وممارسة العنف ضدهم واستغلالهم ونهب خيرات بلادهم كما حدث في النماذج الثلاثة.

وقدم الفصل الأول أيضًا تحليلاً للكيفية التي تم فيها توظيف النصوص لدعم الاستعمار في مناطق مختلفة وعديدة وفي فترات مختلفة، وكانت معاملة الشعوب الاصلية للبلاد التي يتم لاستيلاء عليها بنفس الطريقة التي تم بها القضاء على الشعوب السبعة (الحثيين، والجرجاشيين، والأمورين، والكنعانيين، والفرزيين، والحويين، واليبوسيين) من قبل يهوه. وتعكس الأسفار الستة من الكتاب المقدس– التوراة بعض مشاعر التفوق العرقي والعنصرية والخوف من الغرباء، التي تبدو أنها تلقي أكبر قدر ممكن من الشرعية في صبغة موافق عليها سماوياً. وعلى الصعيد القيمي لا تزال التوراة مصدراً لتقديم الشرعية السماوية لاحتلال أراضي شعب آخر، وإبادة فعلية للسكان الأصليين. ومن الأمثلة على ذلك الحروب الصليبية التي كانت مثالاً على الرابط بين الدين والسلطة السياسية وتوظيف الكتاب كأداة قمع. وقد كان هذا واضحاً عندما أعلن البابا أوربان الثاني عند بدء حملة الفرنجة الأولى في مجلس كلرمونت في عام ١٠٩٥ م، ودعا الجنود إلى خوض حرب المسيح، وضمن لهم الصفح عن كل خطاياهم. والدعوة إلى تحرير أورشليم من الأجناس النجسة وتسويغ العدوان المسلح عليها بالعهدين القديم والجديد .

أما الفصل الثاني والمركزي للكتاب فقد تناول دراسة وتحليل النماذج الاستعمارية الثلاثة: أمريكا اللاتينية، وجنوب افريقيا، والاستعمار الإسرائيلي في فلسطين. ومن خلال دراسة وتحليل هذه النماذج وضّح الأب برير كيف وظف الاستعمار، في كل واحدة من الحالات، نصوص الكتاب المقدس عند المسيحيين واليهود في تسويغ الاحتلال والاستيطان والاستغلال، والاستعباد وابادتهم الشعوب المستعْمَرة. بالإضافة إلى دراسة وتحليل النماذج (الحالات) الثلاثة، كما عمل على مقارنة كيفية تناول النصوص التي تم اللجوء إليها في كل نموذج، على حدة، وأظهر أوجه الشبه والاختلاف فيما بينهم، مع التركيز على النموذج الصهيوني. وجاء تحليله للنماذج على النحو التالي:

أمريكا اللاتينية: بعد وصول كرستوفر كولمبس في عام ١٤٩٢ لأمريكا اللاتينية، وعلى أثر اكتشاف الأراضي الخصبة والمليئة بالذهب، قام البابا الكسندر السادس بتقسيم البلاد إلى قسمين بين اسبانيا والبرتغال. ومن ثم قام كولمبس بعدد من الحملات الاستكشافية، واستوطن في هسبنيولا وجزر الانتيل الكبرى في الفترة الواقعة ما بين ١٤٩٢– ١٥١٢ للتقدم بعمق البلاد. كانت هذه البلاد مأهولة بالسكان الأصليين مدة ألفي عام قبل مجيء كولمبس إلى أمريكا الجنوبية، ولها حضارة متطوّرة. وقد قُدر عدد السكان حينها بنحو ٣٥ مليون نسمة، وبدأ الاستيطان للأرض واستغلال السكان الأصليين وتم تنفيذ السخرة واستمر الاستعمار قرابة ٣٠٠ عام، حتى بداية الثورة الفرنسية والأمريكية التي أدت إلى حروب الاستقلال .

اشتمل تاريخ تدخل أوروبا في أمريكا اللاتينية على ثقافة الهيمنة وترابط السياسة والدين حيث تبادلا الدعم العقدي والمادي والمؤسساتي والشرعية، وكانت الكنيسة الكاثوليكية جزءا لا يتجزأ من المغامرة الاستعمارية في أمريكا عبر إنشاء الأديرة ومراكز التنصير. وكان كولمبس ينفذ غزوه تحت اسم «إلهنا يسوع المسيح». بهذه الصورة أصبح

وعين حارود، في الرواية، هي البقعة الجغرافية الوحيدة، التي تشكل منفذاً إلى زمن مغاير. «سأذهب إلى عين حارود. وهناك، في عين حارود، سوف نبدأ كل شيء مرة أخرى من جديد، إنما بشكل مغاير. في عين حارود الجديدة سيربض النمر مع الجدي، وستولد الأرض من جديد، ويعود كل شيء يزهر ثانية». والرواية، هي سردية البحث عن عين حارود هذه، في محاولة إلى الوصول إلى زمنٍ أثيريّ، فيه ينتصر المغلوبون والغالبون، هؤلاء على هزيمتهم وهؤلاء على انتصارهم، في العودة إلى زمن البداية الذي فيه من الممكن صياغة كل شيء بصورة مختلفة.

الحافز الديني في تنصير الهنادرة هو التسويغ لمجمل مشروع الغزو «الاستيطان»؛ وقد وصف رجل اللاهوت سبولفديه السكان الأصليين الهنادرة بالبربر وبأنهم أقزام، وكان ذلك مسوغا اضافياً يفرض عليهم قبول سيطرة المتفوقيين عليهم وسيطرته التي ستجلب لهم منافع عظيمة وتحولهم من أشرار وأنجاس إلى أمناء وأشراف. وعليه، فقد كانت هذه النقاشات أيضاً مسوغا للسيطرة الاستعمارية ونابعة من مواقف عنصرية وأبوية وجنسانية، ومستمدة من النظام الطبيعي أكثر من اللاهوت.

جنوب أفريقيا: وضّح برير في النموذج الإفريقي كيف كان للكتاب المقدّس واللاهوت المسيحي دور بارز في تطور الاستعمار الأفريقاني والقومية الأفريقانية، وتسويغه عبر توظيفهما، وكيف قامت الغالبية من اللاهوتيين الإصلاحيين الهولنديين في جنوب أفريقيا باختراع الفصل العنصري في الفترة ما بين ١٩٣٠– ١٩٦٠، وتبريره والدفاع عنه وترسيخ قاعدته باللجوء إلى الكتاب وخاصة سفر التثنية، بحيث تمت ملاءمتهما وتكييفهما مع تطور العقيدة الأفريقانية السياسية.

ومع بداية عام ١٩٧٠ كانت القوات المشتركة البريطانية والميليشيات الاستعمارية والقوات الخاصة الأفريقانية قد أتمت سيطرتها بإخضاع الأفارقة، وكان لدى البريطانيين وبعض البوير هاجس يسعى إلى نشر وتعميم شعور بالتفوّق على الأفارقة بسبب انتمائهم إلى عرق متحضر ودين نبيل، وهو ما سوّغ لهم الاستيلاء على أراضي السكان الأصليين والسيطرة على سوق العمل والمواطنين المحليين. هذا مع العلم أنه كان هناك تنافس بين المجموعتين (البريطانيين والبوير) على مهمة إخضاع الأفارقة وذلك بعد اكتشاف كميات كبيرة من الماس والذهب في المنطقة، وقد حققت هذه الموارد للبيض المستعمرين أرباحاً طائلة.

وفي النموذج الأفريقي، ركّز برير على الدور الذي لعبته خرافة النزوح الكبير للبوير من مستعمرة «كاب» إلى «اورانج فري ستيت» و«ترينغال» في الفترة ١٩٣٥– ١٩٤٠، وهنالك خرافة تدعي أن الكتاب يصلح لأن يكون مصدراً لهوية «بويرية»، كما تشيع أنهم بنزوحهم اعتبروا انفسهم الشعب المختار الذي خلص البريطاني (بني إسرائيل) من مصر وهم في طريقهم إلى أرض الميعاد، وأن السكان الأصليين من السود هم (الكنعانيون)، وقد وضّح برير هذه المقاربة ما بين بني إسرائيل والأفريقان بمجموعة من النقاط: انتقل بنو إسرائيل من مصر إلى فلسطين أما الافريقان فانتقلوا من الـ «كيب» إلى «فري أورانج»، تحمّل الطرفان قساوة الحكام الغرباء، بنو إسرائيل هربوا من مصر إلى أرض كنعان وكذلك الأفريقان هربوا من مستعمرة الـ «كيب» إلى الشمال، الطرفان تسلموا أراضي جديدة وأقاموا عهدا مع الرب وشيدوا نصباً تذكارية من الحجارة وبنوا كنائس ورووا تاريخهم على نحو استرجاعي.

الاستعمار وفلسطين: في هذا النموذج استقصى برير كيف اختلق المؤرخون الصهاينة التاريخ اليهودي بطريقة شبيهة بما شهدناه في النماذج الأخرى وخاصة في حالة أصحاب العقيدة الأفريقان، وكيف كان للكتاب المقدس دور خاص في ذلك، لكن بدرجة أقل من دوره في التسويغ الذي ساقه المستوطنون الأوروبيون في أمريكا الجنوبية وجنوب أفريقيا، بسبب استعانة الاستعمار الصهيوني بالكتاب منذ عشية حرب حزيران، وليس منذ البدايات، وذلك بهدف إيجاد الشرعية لاحتلال أرض فلسطين وطرد شعبها. كما استعرض أبرز التطورات منذ ولادة الصهيونية وحتى صدور هذا الكتاب، وقام بتقسيمها إلى مراحل: المرحلة المبكرة للصهيونية ١٨٩٦–١٩١٧، وفيها تحدث عن رؤية هرتسل وخطته، عن الصهيونية الإمبريالية، وعن الحرب العالمية الأولى. المرحلة الثانية : ١٩١٧–١٩٤٨، وعد بلفور وعصبة الأمم المتحدة ، المعارضة العربية، مشروع التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة في عام ١٩٤٧، وما بين قرار التقسيم ونهاية الانتداب. المرحلة الثالثة: دولة إسرائيل ١٩٤٨– ١٩٦٧، ترحيل اللاجئين الفلسطينيين عام ١٩٤٨، وتدمير القرى والمدن الفلسطينية. المرحلة الرابعة : ١٩٦٧ وتهويد الأراضي الفلسطينية، إسرائيل في لبنان، ائتلاف الوحدة الوطنية الحكومي ١٩٨٤ –١٩٨٨، الانتفاضة والعملية

السلمية، البعد الديني وعملية الحرم الإبراهيمي عام ١٩٩٤ واغتيال رئيس الوزراء الاسرائيلي إسحق رابين في عام ١٩٩٥، التمسك بحرفية الكتاب والتأويلات السياسية، هوية اليمين المتطرف.

بعد استعراضه المراحل التي مرت بها الصهيونية خلال استعمارها فلسطين انتقل إلى تحليل تلفيق الخرافات الاستعمارية، وفي هذا الجزء تحدث عن العناصر المتماثلة حول قضية الحق في الفتوحات واستيطان الأرض واختصرها ببعض النقاط التي تشكل أسسًا فكرية وعقائدية للاستعمار الصهيوني، مثل خرافة الأرض البكر أو البرية، وخرافة الدفاع عن النفس، وخرافة طهارة السلاح، بالإضافة إلى خرافة التفوق والفصل العنصري، وخرافة الشرعية والتفويض.

ويوضح الكتاب أيضاً أن تلفيق الخرافات الخاصة بالصهيونية، رغم أنها تشترك مع أشكال الاستعمار الأخرى في الكثير من الصفات، إلا أنها تميّزت ببعض الصفات الخاصة بها وأعطتها مواصفات فريدة. وتستند هذه الخرافات على مزيج من الحق الإلهي والمطلب التاريخي، وتثبيت وجود دولة يهودية على قاعدة اللجوء إلى التفويض التوراتي وإلى الحق التاريخي وإلى الحنين المتواصل لليهود والإقامة المتواصلة على الأرض. وبعد عام ١٩٤٨ تم تلفيق تاريخ الأحداث التي وضعت بعناية واضحة في خرافات التأسيس على شاكلة هجرة العرب الطوعية وتحويل الصحراء إلى حدائق، وادعاء أن إسرائيل هي الدولة الديمقراطية الوحيدة في المنطقة. ومن أبرز الخرافات الصهيونية: خرافة عدم طرد السكان الأصليين، خرافة الدفاع عن النفس، المحرقة والعصبية الصهيونية، طهارة السلاح. علما أنه تم نفي هذه الخرافات والادعاءات من قبل بعض المؤرخين الجدد للدولة العبرية مثل بيني موريس وشابيرا، حسب ما ذكر في الكتاب.

أما الفصل الثالث والأخير من الكتاب فينقسم إلى جزئين: يتناول الجزء الأول إعادة تأويل البرهان الكتابي والثاني معضلات أدبية وتاريخية. ومن خلالهما أعاد برير تفحص وتحليل ونقد القصص التي وردت في نصوص الكتاب المقدس من بداية تاريخ المسيحية واليهودية وربط قراءة الكنس للتوراة والكنيسة للعهد القديم بالفترة الزمنية لشخصيات كل قصة.

كما وضح أن الدراسة النقدية لأسفار الشريعة الخمسة وهي : أسفار العهد القديم الخمسة الأولى والتي تسمى أيضاً أسفار موسى أو ما يطلق عليه «التاريخي التثنوي» الذي انقسم إلى قسمين بين أولئك الذين يجادلون بأن التأليف وقع في فترة ما بين القرن السادس إلى الرابع عشر قبل الميلاد، وأولئك الذين يقولون بأنها كتبت في القرن الثالث قبل الميلاد، وأن هناك فترة انقطاع وزمنا كبيرا بين الأحداث المزعوم سردها، وهو ما يثير الاسئلة عن السرد التاريخي والشكل الأدبي والغرض من التأليف، كقصة الوعد بالأرض لإبراهيم ونسله وكأنها سجل لما حدث فعلاً، وأن يذهب إلى أرض الميعاد أرض كنعان وقصة شعب الأرض الموعودة.

وأيضاً قدم مثالا يبرز فيه التناقض في روايات الاستيلاء والاستيطان الاسرائيلية، مع وجود إجماع يؤكد أن بني اسرائيل لم يكونوا من سكان الأرض الأصليين بل وصلوا من الخارج واستولوا عليها، حيث توجد في الكتاب روايتان مختلفتان ومتناقضتان بشأن استيطان بني إسرائيل أرض كنعان، ففي سفر يشوع يتحدث تقريباً على استيلاء كامل وعنيف. أما في الرواية الثانية في سفر القضاة فيتحدث عن استيلاء جزئي وعن التثبيت التوراتي بالأرض. وإلى جانب أن هذه الروايات تحمل معاني دينية فهي تحمل مسائل تاريخية وأدبية .هذا بالإضافة إلى نماذج استيطان بني إسرائيل في أرض كنعان مع إبراز العلاقة الخاصة لكل نموذج بالنص الكتابي، والذي يقترح تقديما مختلفاً لطبيعة الدلالة اللاهوتية للحدث، فالنموذجان الأول والثاني: التغلغل القبلي أو البدوي، والغزو الواسع النطاق، يعترفان بتدخل حقيقي من الخارج، لكن النموذج الثالث مبني أساساً على فرضية انسحاب الفلاحين إلى الداخل في مدن الكنعانيين أو إلى التمرد عليها وهذا يوضح التناقض في الروايات وعدم صحتها.

من الملاحظ أنه تم تسليط الضوء، في الكتاب، على الاستعمار الصهيوني لفلسطين ونالت فلسطين مساحة كبيرة في فصول الكتاب الثلاثة: السرد التاريخي والتحليل والنقد، دون التحيز أو الخروج عن الموضوعية في تناول موضوع الكتاب. ربما يعود هذا بتأثير الظروف التي عاشها برير أثناء إعداده الكتاب، وإطلاعه على حجم الظلم الذي ألحقه الاستعمار الصهيوني بالشعب الفلسطيني وممارسات الاحتلال اليومية ضد الفلسطينيين، بالإضافة إلى كون الاحتلال الصهيوني ما زال مستمراً في فلسطين حتى اللحظة، وبرأيي هذا أكسب الكتاب قوة وتميزا. هذا بالإضافة إلى أنه كان دقيقا في عرضه لمادة النصوص وتحليلها وربطها بالنماذج الاستعمارية الثلاثة، كما تم توثيقها بشكل جيد مع الإشارة إلى مصدر كل معلومة أو نص تم ذكرها في الكتاب. وهذا ما عزّز من الأمانة العلمية للكتاب، وزاد من ثقة القارئ ومصداقية الكتاب ومؤلفه. ومن نقاط القوة لهذا الكتاب أيضاً، بالإضافة إلى الأسلوب واللغة والموضوعية والأمانة العلمية، ترجمته الرزينة والقوية، والتي لم تنتقص من قيمة المادة الأصلية التي كتبت باللغة الانكليزية في الأصل، علما أنه تمت الإشارة إلى التدقيق اللغوي لهذا الكتاب، خصوصاً ان الكتاب يتناول موضوعا ًذا حساسية كبيرة كونه يتناول نصوصًا من الكتاب المقدس وقضايا دينية ولاهوتية.

وبعد قراءة متأنية للكتاب يشعر القارئ بأنه مقتنع بما طرحه برير وبشكل مكتمل ومدعم وموثق بشكل جيد، وهذا يمكننا من الاعتماد عليه واستخدامه كمرجع علمي للأبحاث الخاصة بهذا الموضوع. وانصح كل من يرغب بفهم عقلية الاستعمار وخصوصا عقلية الاستعمار الصهيوني لفلسطين أن يقرأ هذا الكتاب، بالإضافة إلى أنه يستحق أن نقتنيه وأن نضيفه إلى قائمة كتبنا المفضلة في مكتباتنا.